﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحجّ: 3 - 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بين حالِ النّاس يومَ القيامة ومَن جادلَ فأفضَى به الشّيطانُ إلى السّعير

بعد أن تناولتِ الآيةُ السّابقة قيامَ السّاعة، وكيف أنّها تباغتُ النّاسَ بما يُزلزل كيانَهم، وتضطربُ به أحوالُهم، حتّى تنسى الوالدةُ رضيعَها الّذي ألقمته ثديَها، وتُسْقطَ الحاملُ ما في بطنها، وترى النّاس في هَلَع واضطراب، يَهيمون بلا عقول، ويَترنّحون كالسّكارى، جرّاءَ شِدّة الهول، واستحكام الفَزَع، عُطف عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، لبيان حالِ المجادِلين بغير علم، والمُتّبعين زيغَ الشّيطان، الّذي مَنِ اتّبعه أرداه، واستدرجه إلى عذاب السّعير، وبئسَ المصيرُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: (جدل) أصْلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ بابِ اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيهِ، وامْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ[1]، والجِدال: المُفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصلُ في الجِدال: الصّراعُ وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصّلبة[2]، ويقال: إنّه لجَدِلٌ، إذا كان شديدَ الخصام، وإنّه لَمِجْدَلٌ، وقد جادل فلانًا جِدالًا ومُجادلة[3]، ومِجْدالٌ: شديد الجَدَل، وفي القرآن الكريم: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جدل).

زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: 1]، أي: يتجادلان في ذلك الأمر، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 197]، أي: لا ينبغي للرّجل أن يجادل أخاه، فيخرجَه الجدالُ إلى ما لا ينبغي، والمعنى المرادُ في الآية: المفاوضةُ والمخاصمةُ في شأن الله دون علمٍ على سبيل المنازعةِ والمغالبة، دون قصْدِ الوصول إلى الحقّ.

2) ﴿مَّرِيدٍ﴾: (مرد) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَجْريدِ الشَّيْءِ مِنْ قِشْرِهِ، أوْ ما يَعْلوهُ مِنْ شَعْرِهِ، ومِنْهُ شَجَرَةٌ مَرْداءُ، والمَرْداءُ: رَمْلَةٌ مُنْبَطِحَةٌ لا نَبْتَ فيها، والجَمْعُ: مَرادَى، والمارِدُ: العاتي، وكَذا المَريدُ، كَأنَّهُ تَجَرَّدَ مِنَ الخَيْرِ[1]، ويقال: مَرَد على الشّر وتمرَّد: عتا وطغى، والمارد والمريد: الخبيثُ المُتمرّد الشّرّيرُ[2]، وعلى هذا: فالمارِدُ والمَريدُ مِن شياطين الجنّ والإنس: المُتعرّي مِنَ الخيرات[3]، وهو المرادُ في الآية.

3) ﴿تَوَلَّاهُ﴾: (ولي) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أي: يُقارِبُني، ومِنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ، وهو القُرْبُ[4]، قال الرّاغب: الوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا، ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقُرب مِن حيثُ المكانُ، ومِن حيثُ النّسبةُ، ومِن حيثُ الدّينُ، ومِن حيثُ الصّداقةُ والنّصرةُ والاعتقادُ، والوِلايَةُ النُّصْرةُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، وقيل: الوِلايَةُ والوَلايَةُ، نحو: الدِّلالة والدَّلالة، وحقيقتُه: تَوَلّي الأمرِ، والوَلي والمَوْلَى يُستعملان في ذلك كلُّ واحدٍ منهما، يقال في معنى الفاعل، أي: الموالي، وفي معنى المفعول، أي: الموالَى[5]، والمرادُ من ﴿تَوَلَّاهُ﴾ في الآية: القُرْبُ مِنَ الشّيطان ومُناصرتُه واتّباعُه.

4) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: (سعر) أصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى اشْتِعالِ الشَّيْءِ واتِّقادِهِ وارْتِفاعِهِ، مِنْ ذَلِكَ السَّعيرُ: سَعيرُ النّارِ، واسْتَعارُها: تَوَقُّدُها[6]، وسَعَر النّار: أوقدها وهيّجها، وكذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرد).
(3) الرّاغب، المفردات: (مرد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعر).

سعّرها: زوّدها بما تأكلُه فيزدادُ انتشارُ لهبِها[1]، والمرادُ بـ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآية: سعيرُ النّار المُتوقّدةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ المُجادِلين بغير عِلْم ممّن يَزُجُّ بهمُ الشّيطانُ في السّعير

تعالجُ هاتان الآيتان حالَ صِنفٍ مِنَ النّاس ممّن يخاصِمُ ويجادِلُ في اللّه تعالى بجهالة، فلا يرجعُ في مزاعمِه إلى برهانٍ عقليٍّ، ولا إلى دليلٍ نقليٍّ، كهذا الّذي يُنكِرُ البعثَ والنّشورَ، ويَستبعدُه على اللّه الّذي خلقنا أوّلَ مرّة، وخَلَق الأرضَ والسّماواتِ والكونَ برُمّته، وينسبُ إلى اللّه البنينَ والبناتِ، في حين أنّه تعالى لا والدَ له ولا ولد، وينكرُ معجزةَ القرآن دونَ حُجّة أو برهان، وهو في ذلك وأمثالُه، يتّبعُ كلّ شيطان مَريد، مُتجرّدًا للفساد، عَريا عنِ الخير والحَقّ والرّشاد، ناسيًا أنّ اللّه قضَى على الشّيطان المَريد أنّه مَن اتّبعه وسلكَ سبيلَه، فإنّه يُضِلُّه عن سواءِ السّبيل في دنياه، ويسوقُه إلى عذاب السّعير في أُخراه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرف (الواو) في سياق الآيةِ:

اشتراكُ الجُمَلِ المتعاطفةِ في بيانِ أحوالِ النّاس مُفصحٌ عنِ البيان

يرى بعضُ المُفسّرين أنّ الواو استئنافيّةٌ، والكلامَ بعدَها مبتدأٌ، جيءَ به إثْرَ بيانِ عظيم شأنِ السّاعةِ المُنبئةِ عنِ البعثِ، بيانًا لحالِ بعضِ المُنكرينَ لها[2]، فالجملةُ مستأنفةٌ مسوقةٌ لذِكْر مَن غَفَل عنِ الجزاء في ذلك وكذّب به، والمناسبةُ بينها وبين ما تقدّم مِن ذِكْر أهوال السّاعة وزلزلتِها واضحةٌ[3]، ويرى ابنُ عاشور أنّ الواو هنا عاطفةٌ، عطفت الآيةَ على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ومُسوِّغُ العطفِ أنّ النّاس فَريقانِ: فَريقٌ يَمْتَثِلُ الأمْرَ فَيَتَّقي اللّه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سعر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 387.

ويَخْشَى عَذابَهُ، وفَريقٌ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ويُعارِضُهُ بِالجَدَلِ الباطِلِ في شَأْنِ اللّه تَعالَى، مِنْ وَحْدانيتِهِ وصِفاتِهِ ورِسالَتِهِ، وهَذا الفَريقُ هم أئمّةُ الشِّرْكِ وزُعَماءُ الكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الَّذينَ يَتَصَدَّوْنَ لِلْمُجادَلَةِ بِما لَهُمْ مِنْ أغاليطَ وسَفْسَطَةٍ، وما لَهُمْ مِن فَصاحَةٍ مُزَوّرة وتَمْويهٍ[1].

معنى (من) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

(من) هنا تبعيضيّةٌ، على معنى أنّ بعضَ النّاس مَن يجادلُ، وليس جميعُهم يفعل ذلك، وذكروا في سبب نزولها أسبابًا، والحَقُّ أنّها عامّةٌ في كلّ مَن تعاطى الجدالَ، فيما يجوزُ على اللّه، وما لا يجوزُ مِنَ الصّفات والأفعال، ولا يرجعُ إلى عِلْم، ولا يعضُّ فيه بضرس قاطعٍ، وليس فيه اتّباعٌ للبرهان، ولا نزولٌ على النَّصَفة، فهو يخبطُ خبْطَ عشواء، غيرَ فارق بين الحقّ والباطل[2].

العبرةُ بعمومِ اللّفظِ لا بخصوصِ السّببِ

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

أفاد التّعريفُ هنا الاستغراقَ، أي: مِن جميع النّاس، ويمكن حَمْلُها على العهد، أيّ: النّاس الكافرين، فبعضُهم هو مَن يجادل، وبعضُهم مَن لا يفعل ذلك، وحَمْلُها على الاستغراق أولى، وفائدة التعريف تأتي من أنّه تعالى أخبرَ فيما تقدّم عن حال أهل القيامةِ وشدائدِها وأهوالِها، ودعا النّاسَ إلى التّقوى؛ دفعًا للبلوى، ثمّ ميّزَ في هذه الآية قومًا مِنَ النّاس لا يَكُفّون عن مجادلتِهم في اللّه.

المُبْطِلون ماضون في الإنكار مهما لقيتِ الهدايةُ مِن انتشار

وأنّه تعالى بيَّن أنّ هذا الصّنفَ مِن النّاس، ما منعَهم التّحذيرُ الشّديدُ بذِكْر زلزلة السّاعة، وشدائدِ الانتقال إلى القيامة، مِنَ الجدالِ والكُفر الصّفيقِ، فأبان حالَهم العجيبَ[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شبْهِ الجملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

سببُ تقديم شبْهِ الجملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على المبتدأ ﴿مَن

التّقديمُ للعنايةِ بأصنافِ النّاس مِـن فصيحِ البيانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 192.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 143.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/ 143.

﴿يُجَٰدِلُ﴾، هو أنّ مدارَ السّورة قائمٌ على بيان أحوال النّاس، حيثُ امتازت هذه السّورة بكثرة الحديثِ عنِ النّاس في أكثرَ مِن جانبٍ، حيثُ وردت لفظةُ (النّاس) نحو خمسَ عشرةَ مرّة[1]، النّداءُ فيها للنّاس كان في نحو أربع مرّاتٍ[2]، ثمّ إنّ هذه السّورةَ تحدّثت مليًّا عن أصناف النّاسِ وأنواعِهم مِن مُجادِلين ومنافقين ومؤمنين ورُسلٍ[3]، وإذا كانت هذه السّورةُ قد تميّزت بالحديث عنِ النّاس وأقسامِهم وما يتعلّق بهم، فلا ريبَ أن يتقدّم في الآية الحديثُ عنهم؛ رعايةً واهتمامًا بهم، كيف لا، وقد بدأت السّورةُ بندائِهم.

دلالةُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

استعمالُ الموصولِ في حالة الإبهامِ لأغراضٍ بيانيّةٍ

قولُه تعالى: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، يمكنُ أن تكون ﴿مَن﴾ نكرةً موصوفةً، وصفتُها: ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ويمكنُ أن تكون اسمًا موصولًا، والغرضُ مِنَ التّعبير بالاسم الموصولِ هنا الذّمُّ والتّحقيرُ لشأن مَن يفعلُ هذه المجادلةَ، والاسمُ الموصول مبهمٌ، ويفتقرُ إلى جملةِ صلةِ الموصول ﴿يُجَٰدِلُ﴾، الّتي أزالت الإبهامَ عنه بوصفِ المُجادلة في شأن الله تعالى.

دلالةُ التّعبير بالمجادلةِ مادّةً وصيغةً:

لا يَخلو زمانٌ مِن وجودِ المُجادِلين في آيات الله

المجادلةُ هي المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ، فاختيارُ الكلمة هنا دون غيرها؛ للإشارة إلى أنّ هذه المفاوضةَ لم يكن مقصودُها الوصولَ إلى الحقّ، وإنّما هي للمنازعةِ والمغالبةِ، وأمّا التّعبيرُ بالفعل المضارع، ففضلًا عن إفادته معنى التّجدّدِ الاستمراريِّ، إلّا أنّها أعطت شيئًا للقارىء مِن استحضار صورةِ هذا المُجادِل، وإفرادُ لفظِ المجادَلة، هو مِن باب مراعاةِ لفظ ﴿مَن﴾، ولو جاء على الجمع لجاز لغةً.

(1) الآيات: (1، 2، 3، 5، 8، 11، 18، 25، 27، 40، 49، 65، 73، 75، 78).
(2) الآيات: (1، 5، 49، 73).
(3) الآيات: (3، 8، 11، 18، 75).

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾:

الحذفُ في التّركيب السّديدِ من الإفصاحِ المفيدِ

حُذفَ مفعولُ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ هنا للتّعميم، والتّقديرُ: (يجادل المؤمنين، أو الرّسلَ، أو الدّعاةَ)، فَحَذْفُ المفعولِ مِن شأنه أن يَعُمّ هذا وغيرَه، والمقصودُ مِنَ السّياق عمومًا مَن يتصدّى لهذا الأمر، ولا يتأخّرُ عن مجادلة أهل الحقِّ؛ مِن رُسلٍ ودُعاة وناصحين، وقد ذُكِرَ المُجادِلُ، وحُذِف المُجادَلُ، والمجادلةُ بغير الحقّ: مخاصمةٌ ومحاجّةٌ، تقوم على الباطل، وتنتصرُ لكلّ زيفٍ زائلٍ، وحَذْفُ مَن تتّصلُ به للعِلْم به مِنَ السّياق، وورودُ الفاعلِ للتّنديد به، وتأكيدِ ضلاله وزَيغِه، وشتّان بين المذكورِ والمَحذوف.

بلاغةُ الحذف في قوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

الحذفُ قد يكونُ للتّعميمِ في ثنايا السّياقِ الحكيمِ

تقديرُ الكلام: (مِنَ النّاس مَن يجادلُ في شأنِ الله جلّ في علاه، ويقول فيه ما لا خيرَ فيه مِنَ الأباطيلِ)[1]، فالحَذْفُ هنا للتّعميم ليَشملَ كلَّ مجادلةٍ مِن شأنها أن تكون بغير علم، وأفاد الحرفُ ﴿فِي﴾ الظّرفيّةَ المَجازيّةَ، حيثُ شبّهت ظرفَ المجادَلةِ المعنويَّ بالظّرف الحِسّيّ، بجامع الإحاطةِ والتّغلغُل.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

لحروفِ المعاني أثرٌ في دلالاتِ السّياقِ القرآنيّ

الباء تُفيدُ الملابسةَ والملاصقةَ، على معنى أنّ هذه المجادلةَ لابَسَها الجهلُ وعدمُ العلم، ويمكن حَمْلُها على السّببيّة، على معنى: أنّه يجادلُ المؤمنين أو النّاسَ بسبب قِلّة عِلْمه.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عِلْمٍ﴾ في السّياق:

انتقاءُ صيغةِ التّنكيرِ دليلٌ على دقّةِ القرآن في التّعبير

يمكنُ أن يُفيدَ التّنكيرُ هنا معنى التّقليل، على معنى: أنّ هذا المُجادِلَ لا يملك أدنى عِلْم لِما يُجادل فيه، ويمكنُ أن يُفيدَ التّعظيمَ، على معنى: أنّه لا يملك عِلْمًا يُؤهّلُه لهذه المجادلة؛ لسُموّها عنه، وتقاصُرِ حُجّته وعِلْمه عنها، ولفظُ ﴿عِلْمٍ﴾ بالتّنكير على إطلاقه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

يُفهم منه: "أنّهم في غاية الجهل، ما عندهم مِنَ العِلْم شيءٌ، وغايةُ ما عندهم تقليدُ أئمّةِ الضّلال، مِن كلّ شيطان مريد، مُتَمرّدٍ على اللّه، وعلى رُسلِه، مُعاندٍ لهم، قد شاقّ اللّهَ ورسولَه، وصار مِنَ الأئمّة الّذين يَدعون إلى النّار"(1).

فائدةُ التقييد بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

المجادلةُ قد تقعُ بحقٍّ أو بباطل

يقول الرّازيّ: "هذه الآيَةُ بِمَفْهومِها، تَدُلُّ على جَوازِ المُجادَلَةِ الحَقَّةِ؛ لِأنَّ تَخْصيصَ المُجادَلَةِ مع عدم العِلْمِ بِالدَّلائِلِ، يَدُلُّ عَلَى أنَّ المُجادَلَةَ مع العِلْمِ جائِزَةٌ، فالمُجادَلَةُ الباطِلَةُ هي المُرادُ من قَوْلِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزُّخْرُف: 58]، والمُجادَلَةُ الحَقَّةُ هي المُرادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النَّحل: 125]"(2).

معنى الواوِ في جملةِ: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾:

مَـنِ استحوذَ عليه الشّيطانُ كَـثُرَ جَـدَلُـه وانـحـرفَ عـنِ الحَقّ

الواو هنا عاطفةٌ، حيثُ عطفت صفةً على صفة، وحالًا على حال، والحالُ الثّانية هي السّببُ الكامِنُ وراءَ الحالة الأولى، فإنّ اتّباعَه للشّيطان، هو الّذي دفعَه للمجادَلة بغير عِلْم، والآيةُ نزلت في النّضر بنِ الحارث، وكان صاحبَ لسانٍ وجدلٍ، وقد أشار الزّمخشريُّ إلى كون الآية "عامّةً في كلّ مَن تعاطى الجِدال، فيما يجوز على اللّه وما لا يجوز، مِنَ الصّفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم، ولا يعضُّ فيه بضِرس قاطعٍ، وليس فيه اتّباعٌ للبرهان، ولا نزولٌ على النَّصَفة، فهو يَخْبِط خَبْطَ عشواء، غير فارق بين الحَقّ والباطل"(3).

بلاغةُ المجازِ في التّعبير عنِ الطّاعةِ بالاتّباعِ:

طاعةُ الشّيطانِ صورةٌ مِن صور اتّباعِه

عبّرتِ الآيةُ عن طاعة الشّيطانِ بلفظ الاتِّباع، بجامع الملازمةِ والاقتفاءِ، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّة؛ لأنّ الطّاعة تقتضي الاتّباعَ للشّيطان في وسوستِه وإغوائِه، واتّباعُ الشّيطانِ ضلالٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 533.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 143، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 232.

وهوانٌ، خصوصًا وأنّه "مخلوقٌ محترقٌ بالشّرّ، مبعَدٌ باللّعن، ولمّا كان السّياقُ لذمّ متَّبِعِه، أشار إلى أنّه لا قصْدَ له في اتّباعه إلّا الشّرّ"[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾:

مَـــنِ اتّـــبـــعَ الشّيطانَ أفضَى به إلى الهوان

أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارع هنا، تجدُّدَ اتّباعِه للشّيطان في كلّ مَرّة يوسوسُ له فيها، فضلًا عن إفادتها استحضارَ صورتِه وهو يتّبعُه، ذلك أنّه "لا يستندُ في جَدَله وإنكارِه إلى علمٍ صحيح، أو حُجّةٍ صادقةٍ، ولكنّه يُقلّدُ ويتّبعُ خطواتِ كلِّ شيطان متمرّدٍ على ربّه شِرّيرٍ، دأبُهُ الفسادُ والضّلالُ"[2]، والشّأنُ هنا أنّ كلَّ مَن أسلم للشّيطان قيادَه، واتّبعَه في إغوائه الخادعِ، وتزيينِه المخادعِ، فإنّ الشّيطان يهوي به في قاع سحيقٍ مِنَ الضّلالة والمَفسدةِ، التّي تُفضي به إلى جهنّمَ، وقد قدّر اللّهُ وقضَى أنّ كلَّ مَنِ اتّبع ذلك الشّيطانَ وسلكَ سبيلَه، أضلّه الشّيطانُ عن طريق الحقّ، ووجّهَه إلى الباطلِ المُفضي به إلى عذاب جهنّمَ المُخزي.

نُكْتَةُ المجازِ في استعمالِ ﴿كُلَّ﴾ في السّياقِ:

مِنَ المجازِ ما يكثُرُ حتّـى يُـسـاوِيَ الحقيقةَ

إطْلاقُ لَفْظِ ﴿كُلَّ﴾ على الكَثْرَةِ شائِعٌ في كَلامِ العَرَبِ، وأصْلُهُ مَجازٌ لِجَعْلِ الكَثيرِ مِنْ أفْرادِ شَيْءٍ، مُشابِهًا لِمَجْموعِ عُمومِ أفْرادِهِ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى ساوَى الحَقيقَةَ، فَصارَ مَعْنًى مِنْ مَعاني ﴿كُلَّ﴾ لا يَحْتاجُ اسْتِعْمالُه إلى قرينَة، ولا إلى اعْتِبارِ تَشْبيهِ العَدَدِ الكَثيرِ مِنْ أفْرادِ الجِنْسِ، بِعُمومِ جَميعِ أفْرادِهِ، حَتَّى إنَّهُ يَرِدُ فيما لا يُتَصَوَّرُ فيهِ عُمومُ أفْرادٍ[3].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿شَيْطَانٍ﴾:

التّنكيرُ للتّحقيرِ أو للتّعميمِ بحسبِ المعاني المحتملةِ

نُكّرت هذه اللّفظةُ هنا للتّحقير والذّمِّ، ويمكنُ أن يكونَ التّنكيرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 13.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 449.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 34 - 35.

للتّعميم؛ لأنّ هذه اللّفظةَ تشملُ شياطينَ الإنس والجنّ، يقول الرّازيّ: "﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ قَوْلانِ: **أحَدُهُما:** يَجوزُ أنْ يُريدَ شَياطينَ الإنْسِ، وهُمْ رُؤَساءُ الكُفّارِ الَّذينَ يَدْعونَ مَنْ دونَهُمْ إلى الكُفْرِ، **والثّاني:** أنْ يَكونَ المُرادُ بِذَلِكَ إبْليسَ وجُنودَهُ"[1].

دلالةُ وصفِ الشّيطانِ بـ ﴿مَّرِيدٖ﴾:

الشّيطانُ مُتَعرٍّ مِن كلّ خير ورَمزٌ لكلّ معصيةٍ وشَرٍّ

المَريدُ مِن شياطين الجنّ والإنس: المُتَعَرّي مِنَ الخيرات، وهو صفةٌ مشبّهةٌ مِن (مرد)، إذا عتا فيه وبلغ الغايةَ الّتي تتجاوزُ ما يكون عليه أصحابُ ذلك العمل، وكأنّه محوّلٌ مِن (مَرَدَ) بفتح الرّاء، بمعنى (مرن)، إلى ضمّ الرّاء للدّلالة على أنّ الوصفَ صار له سجيّةً، فالمَريدُ صفةٌ مشبّهةٌ هنا، أي: العاتي في الشّيطنةِ[2]، وقال البقاعيّ: "ولمّا كان السّياقُ لذمّ متَّبِعِه، أشار إلى أنّه لا قصدَ له في اتّباعه إلّا الشّرّ؛ لأنّه لا لبسَ في أمره بصيغة المبالغةِ، فقال: ﴿مَّرِيدٖ﴾ أي: مُتَجرّدٌ للفسادِ، لا شُغْلَ له غيرُه، فهو في غاية الضّراوةِ عليه"[3].

نُكْتَةُ فصلِ جملة ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾:

لم تُعطَف هذه الآيةُ على سابقتها؛ لكمال اتّصالها بها، حيثُ إنّ هذه الآيةَ بمثابة الصّفةِ الثّانيةِ لقوله: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾، فالضّميرُ المَجرورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾، وكذلك الضّمائرُ في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ﴾[4].

غرضُ بناءِ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

اختيارُ الصّيغةِ الصّرفيّةِ الأنسبِ مِنَ السّياق الفصيحِ المُعْجِب

يُبنَى الفعلُ للمجهول، أو لِما لم يُسمّ فاعلُه أحيانًا، إمّا للعِلْم بالفاعل، فاللّه تعالى هو الّذي كتب ذلك عليه، وإمّا لدعوة المخاطَبين للانشغال بالفعل عنِ الفاعل، والمعنى: (كتب اللّهُ على هذا الشّيطان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 193.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 7.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 7.

المَريد، وحكمَ عليه حُكمًا ظاهرًا، لا يَتوارى بحجابٍ، ولا يستترُ بجلبابٍ، والشّأن أنّه مَن اتّبعه دون وعْيٍ بالمخاطر والمهالكِ الّتي يُدلي بها الشّيطانُ لمُتّبِعه بغُرور، ما يفتأُ أن يُجرجرَه به إلى عذاب السّعير، ويا بئسَهُ مِن مصير).

دلالةُ التّعبير بالكتابةِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

الكتابةُ مُستعارةٌ للثّبات واللّزومِ على الأرجح

يقول الرّازيّ: "﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ وجْهانِ؛ أحَدُهُما: أنَّ الكِتْبَةَ عَلَيْهِ مَثَلٌ، أي: كَأنَّما كُتِبَ إضْلالُ ﴿مَن﴾ عَلَيْهِ، ورَقَمَ بِهِ لِظُهورِ ذَلِكَ في حالِهِ، والثّاني: كُتِبَ عَلَيْهِ في أُمِّ الكِتابِ"[1]، وإلى المعنى المجازيِّ مال ابنُ عاشور، فالكتابةُ عنده مستعارةٌ للثّبوت واللّزوم، أي: لَزِمه إضلالُ مُتولّيه ودلالتُه على عذاب السّعير، فأُطلقَ على لزوم ذلك فعلُ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: وجبَ عليه، فقد شاع أنّ العَقدَ إذا أُريد به تحقيقُ العملِ به وعدمُ الإخلال به، كُتب في الصّحيفة[2].

نُكْتَةُ تعْديةِ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ بـ(على):

تضمينُ الفعلِ معنى زائدًا مِن بلاغةِ السّياقِ

تعْديةُ الكتابةِ بحرف الاستعلاء، تُشْعِرُ بأنّ ما يأتي بعدَها هو في معنى القَهْر والإلزام؛ لأنّ مِن شأن فِعْل التّولّي للشّيطان أن يقودَ إلى هذه النّتيجة المُخْزية، ويَؤول به إلى الوبال العظيم، ويمكنُ أن يكون قد ضُمِّن الفعلُ ﴿كُتِبَ﴾ فِعلًا يتعدّى بحرف الاستعلاء، مثل: حُكمَ عليه، أو قُضيَ عليه، فتكون البلاغةُ في اجتماع قوّة الفعليّن: الكتابةِ والقضاء.

دلالةُ عوْدِ الضّمائرِ في سياق الآية:

عـوْدُ الضّمائرِ في الآيـة مُرتبطٌ بـمـعـانـيـهـا المحتملةِ

قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، نجدُ أنّ للعلماء في عود الضّمائر في هذه الآية آراءَ كثيرةً، كلّها وجيهٌ مقبولٌ، وقد أوجزَ الرّازيّ الرّأيَ فيها فقال: "واعلَم أنَّ هَذه الهاءَ بَعدَ ذكر مَن يُجادلُ، وبَعدَ ذكر الشَّيطان، يُحتَمَلُ أن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 193.

يَكونَ راجعًا إلى كُلّ واحد منهُما، فَإن رَجَعَ إلَى ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ فَإنَّهُ يَرجعُ إلَى لَفظه الَّذي هو موحَّدٌ، فَكَأنَّهُ قالَ: كُتبَ عَلَى مَن يَتَّبعُ الشَّيطانَ، أنَّهُ مَن تَوَلَّى الشَّيطانَ أضَلَّهُ عَن الجَنَّة وهَداهُ إلَى النّار، وذَلكَ زَجرٌ منه تعالى، فَكَأنَّهُ تعالى قال: كُتبَ على مَن هَذا حالُهُ، أنَّهُ يَصيرُ أهلًا لهَذا الوَعيد، فَإن رَجَعَ إلَى الشَّيطان، كانَ المَعنَى: (ويَتَّبعُ كُلَّ شَيطان مَريد، قَد كُتبَ عَليه أنَّهُ مَن يَقبَلُ منهُ، فَهو في ضَلال)، وعلى هَذا الوجه أيضًا يَكونُ زَجرًا عَن اتّباعه"[1].

دلالةُ المعنى الإعرابيّ للجملةِ المصدّرةِ بـ ﴿أَنَّهُۥ﴾:

تداخلُ الجُمَل في التّركيب مُفضٍ إلى الدّلالةِ بدقّةٍ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾، ﴿أَنَّهُۥ﴾: أنّ: حرفٌ مصدريٌّ وحرفُ نصْب، و(الهاء): اسمُ (أنّ)، و﴿مَن﴾: اسمُ شرطٍ جازمٌ مبتدأ، و﴿تَوَلَّاهُ﴾: فعلٌ ماضٍ والفاعلُ مستتر تقديرُه: (هو)، و(الهاء): مفعول به، وجملة ﴿تَوَلَّاهُ﴾: في محلّ رفع خبرِ (مَنْ)، والمصدرُ المُؤوّلُ: ﴿أَنَّهُۥ﴾ في محلّ رفعٍ نائبِ فاعلٍ ﴿كُتِبَ﴾، و﴿فَأَنَّهُۥ﴾: (الفاء) رابطةٌ، (أنّه): سبق إعرابُها، و﴿يُضِلُّهُۥ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ مستترٌ تقديرُه (هو)، والجملةُ في محلّ رفعٍ خبر (أنّ)، والمصدرُ المؤوّلُ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ في محلّ رفعٍ خبر لمبتدأ محذوفٍ، أو أنّه في محلّ رفعٍ مبتدأ، والخبر محذوفٌ، أي: فإضلالُه حاصلٌ، والجملةُ الاسميّةُ في محلّ جزم جواب الشّرط[2]، والبنيَةُ الإعرابيّةُ هنا خادمةٌ للسّياق، إذ أنّ البِناءَ الشّرطيَّ مُبْرِزٌ لعاقبة مَن يتولّى الشّيطانَ، أو يتولّاه الشّيطانُ، ومُؤكِّدٌ للنّتائج الوخيمةِ في تلك العلاقةِ الأثيمةِ.

احتمالُ الآيةِ المَعنيين بحسب دلالاتِها موفٍ بالغرضِ منها

بيانُ ﴿مَن﴾ بينَ الموصوليّةِ والشّرطيّةِ:

الإعرابُ المتقدّمُ هو الأشهرُ على أنّ (مَنْ) شرطيّةٌ، ويرى بعضُهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1464.

أنّ (مَنْ) موصولةٌ وليست شرطيّةً؛ لأنَّ المَعْنَى على الإخْبارِ الثّابتِ، لا على التَّعْليقِ بالشَّرْطِ، وهي مُبْتَدَأٌ ثانٍ، والضَّميرُ المُسْتَتِرُ في قَوْلِه: ﴿تَوَلَّاهُ﴾ عائدٌ إلى ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ، والضَّميرُ المَنْصوبُ البارزُ عائدٌ إلى ﴿شَيْطَانٍ﴾، أي: أنَّ الَّذي يَتَّخِذُ الشَّيْطانَ وليا فَذَلِكَ الشَّيْطانُ يُضِلُّهُ[1]، وعلى غِرار ما مضى، فإنّ الخلافَ النّحويَّ ذو أهميّةٍ في تنويع التّأويل، واستقراءِ المعنى المراد، بما ينقدحُ عنه ذهنُ المُتَلقّي لتحديد الدّلالةِ الأقربِ إلى روح السّياقِ المُحكم.

معنَى الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنَّهُۥ﴾:

الفاءُ في قَوْلِه: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ داخِلَةٌ على الجُمْلَةِ الواقِعَةِ خَبَرًا عَنْ ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ، تَشْبيهًا لِجُمْلَةِ الخَبَرِ عَنِ المَوْصولِ بِجُمْلَةِ الجَزاءِ، لِشَبَهِ المَوْصولِ بِالشَّرْطِ؛ قَصْدًا لِتَقْوِيةِ الإخْبارِ، ويَجوزُ أنْ تُجْعَلَ الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ فاءَ تَفْريعٍ، ويُجْعَلَ ما بَعْدَها مَعْطوفًا على ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾، ويَكونَ المَعْطوفُ هو المَقْصودَ مِنَ الإخْبارِ، كَما هو مُقْتَضَى التَّفْريعِ، والتَّقْديرُ: (كُتِبَ عَلَيْهِ تَرَتُّبُ الإضْلالِ مِنْهُ لِمُتَوَلّيهِ، وتَرَتُّبُ إيصالِهِ مُتَوَلّيهُ إلى عَذابِ السَّعيرِ)"[2].

تختلفُ دلالاتِ حرفِ المعنى بحسبِ الدّلالاتِ المُحتَمَلةِ

فائدةُ توالي المؤكّدات:

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾، أُكِّدَتِ الجُملتان الفرعيّتان ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ ضمن الجملةِ الكبرى، بأكثرَ مِن مُؤكِّد، مِن (أنّ)، والجُملةِ الاسميّةِ، وتَكرارِ ذِكْرِ المسنَد إليه في خبر الجُملتيْن، وهذه المُؤكّدات جاءت في موضعها الأليَقِ بها؛ لأنّها جاءت في سياق الوعيد لهذا المُجادِل، وفي سورةٍ مكّيّةٍ تُخاطبُ المشركين مِن أهل مكّة، ثمّ إنّ مِن شأن هذه المُؤكِّدات أن توطّئَ لِما سيأتي في الآية بعدَها مِن حديثٍ عن ريْبِ النّاسِ في شأن البعثِ.

أسلوبُ التّوكيدِ موطِّئٌ لِما بعدَه مِنَ المعاني المتّصلةِ بالإنكار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

قيامُ الضّمائرِ مقامَ الأسماءِ الظّواهرِ مِن إعجازِ البيانِ القرآنيِّ

لو فُكّكَتْ هذه الضّمائرُ في الآية، وعُبّرَ بالأعلام عنِ الضّمائر الكثيرةِ فيها لطال حجمُها، ولضاع منها وجوهٌ كثيرةٌ احتملتها هذه الضّمائرُ، في عوْدِها للمجادِل أو للشّيطان المَريد، والعربيّةُ توجِزُ في الإبانة، وتختزلُ كلَّ لفظٍ يمكنُ فهمُه بالتّقدير أوِ التّأويل، أوِ القرائنِ الدّالّة، على اعتبارِ أنّ البلاغةَ الإيجازُ، وأنّ اللّفظَ الزّائدَ في التّركيب يُعتَبر إطنابًا مُستقبَحًا، لا بيانًا مُستَمْلَحًا.

فائدةُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ في الآية:

وَسْوَسةُ الشّيطانِ لا تنفكُّ مُتجدّدةً لإغواءِ الإنسان

قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ﴾، أفادتِ الأفعالُ المضارعةُ التّجدُّدَ الاستمراريَّ لوسوسة الشّيطانِ في هذه الآية، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بها فيه ما فيه، مِن استحضار صورةِ الشّيطان وهو يُضلُّهم ويقودُهم إلى عذاب السّعير.

بلاغةُ الطّباقِ في قوله: ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ و﴿وَيَهْدِيهِ﴾:

المُحسّناتُ تَزيدُ التّركيبَ رونقًا وحُسْنَ إيقاعٍ

في التّعبير بلفظَي الضّلال والهداية، طباقُ إيجابٍ؛ وهو طباقٌ حقيقيٌّ مِنَ المُحسّنات المعنويّة، لِما بينَ اللّفظتيْن مِن تضادٍّ وتقابُلٍ.

نُكْتَةُ ذكْرِ مُتعلّقِ الضّلالِ دونَ الهداية:

إيثارُ التّعبيرِ عنِ المتعلّقِ المُستَغْرَب لا المعهودِ

يقول ابنُ عاشور: "ولمّا كان الضَّلالُ مُشْتَهِرًا في معنى البُعْدِ عنِ الخَيْرِ والصَّلاحِ، لم يُحْتَجْ في هذه الآية إلى ذِكْرِ مُتَعَلِّقِ فِعْلِ ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ لِظُهورِ المعنى، وذُكِرَ مُتَعَلِّقُ فِعْلِ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾، وهو ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لِأنَّ تَعَلُّقَهُ بِهِ غَريبٌ، إذِ الشَّأْنُ أنْ يَكونَ الهُدَى إلَى ما يَنْفَعُ لا إلَى ما يَضُرُّ ويُعَذِّبُ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في الهدايةِ إلى عذاب السّعير:

أسلوبُ القرآنِ في التّهكّمِ بالكَفَرة موجِعٌ وبليغٌ

استُعيرتِ الهدايةُ للسَّوْق إلى عذاب السّعير؛ لقصد السّخريةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.

والتّهكّم، بجامعِ ما يترتّبُ على كلٍّ مِنَ الخير، تحقيقًا أو تخييلًا، على سبيل الاستعارة العِناديّةِ التّهكّميّةِ[1]، والسّياق "فيه تهكّمٌ، ومُؤدّاه: أنّ الرّسلَ يَهدون إلى الجنّة، أمّا الّذين يتّبعون الشّياطين، فإنّ إغراءَهم يوصلهم إلى النّار، وتلك هدايتُهم، إن صَحّ أن تُسَمَّى هدايةً"[2].

(1) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 309.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4941.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»